بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة العامة

لسلسلة دروس سياسية من التجربة الناصرية

إن من أكبر الجرائم التي ارتكبها حسني مبارك في حق مصر وشعبها هو عدم الإفراج عن وثائق ثورة ٢٣ يوليو ، وكان السادات قد شكل لجنة " إعادة كتابة تاريخ مصر " في يناير ١٩٧٦ ووضع تحت أيديها جميع وثائق ثورة ٢٣ يوليو وشهادات من بقي حيّاً من صناعها وشهودها ، وعهد برئاستها إلى نائبه حسنى مبارك، ولكن حسني مبارك بعد ثلاث جلسات فقط ترك رئاسة اللجنة وعهد بها إلى الدكتور صبحي عبد الحكيم، أستاذ الجغرافيا، ورئيس مجلس الشورى لاحقاً .

وعندما انتهت اللجنة من أعمالها وقبل إعلان نتائج ما توصلت إليه اغتيل الرئيس السادات وتولى حسني مبارك الرئاسة بعده ليَدْفِن عمل هذه اللجنة ، ويئد جميع الحقائق التي توصلت إليها ، بل أوقف الحملة التي استهدفت تصحيح ما شاب تاريخ ثورة ٢٣ يوليو من تزييف وتضليل في الإعلام المصري .

لقد قاومت كثيراً – رغم اهتمامي القديم – الكتابة عن التجربة الناصرية في الحكم وكنت أتعلل بكثرة الكتب التي تناولت هذه المرحلة مادحة أو قادحة ، كما كان تركيزي منصبّاً على مشاكل الأمة الآنية والمُلحَّة ، ولكن اكتشفت أن كثيراً من مشكلات الأمة العربية عامة والسياسية خاصة ذات صلة وثيقة بالتجربة الناصرية.

وكما توقع الأستاذ هيكل " فإن عبد الناصر بعيداً أخطر من عبد الناصر قريباً لأنه في غيابه قد تتحول الناصرية من شخص إلى فكرة ومن فكرة إلى تنظيم".

أما أمين هويدي فيقول : " إن عبد الناصر وهو ميت أقوى منه وهو حي؛ إذ مازال هناك إحساس بأنه بيننا يطل على كل ناحية من نواحي حياتنا وكأنه يسمع ويرى . " [1]

ويقول سامي شرف : " ومما لا شك فيه أن جمال عبد الناصر الآن ولسوف يظل الشخصية الأولى على المسرح السياسي المصري والعربي وفي العالم الثالث، ولسوف يظل أيضاً لفترة زمنية أخرى قائداً للجماهير وحاملاً للضوء الكاشف لمسيرة هذه الأمة العربية بدليل أنه منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحتى الآن، أي لقرابة الخمسين عاماً، منها ثلاثون مضت على لقاء ربه وهو باقٍ في ملحمة نضالية مَصْدَراً لإلهام أمَّته. " [2]

وحركات المقاومة العربية المسلحة : حماس ، وحزب الله ، والحلف الإيراني السوري مِنْ ورائهما تجعل من المبادئ والشعارات التي شاعت عن عبد الناصر أساساً لحركاتها [3] يظهر هذا في شعاراتهم التي يرفعونها ، أو في ممارساتهم التي يؤدونها ، مثل شعار اللاءات الثلاثة (لا صلح ، ولا اعتراف ، ولا مفاوضات) مع إسرائيل. وشعار الاعتراف بإسرائيل خيانة ، وإقامة أية علاقة بأمريكا عِمالة، وشعار أن أي تسوية سلمية مع إسرائيل استسلام وانهزامية ، وشعار أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة ، وأن كل المعاهدات التي وقعها الحكام العرب مع إسرائيل مجحفة يجب نقضها والخروج عليها.

---

(1) أمين هويدي " أضواء على أسباب نكسة ١٩٦٧ " دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت . ص ٧ .

(2) سامي شرف " سنوات وأيام مع جمال عبد الناصر " مقدمة الكتاب .

(3) رغم أنها أحزاب دينية ، والناصرية كانت حركة علمانية فليس للدين فيها علاقة بالمجتمع وقوانينه ونظام حياته ، وإنما هو طقوس تعبدية في المسجد أو في الكنيسة فحسب .

لقد استقر في ذهن هذه الحركات ، وكثير من عامة الناس أن التجربة الناصرية حققت للأمة العربية كل ما تتمنى دون أن تكبدهم مؤنة التفكير والعمل ، فإذا كانت إسرائيل هي عدوهم الأكبر في العالم ، فإن عبد الناصر كاد أن يرميها في البحر هي ومَن وراءها ، ورفض أية تسوية سلمية معها.

وإذا كانت أمريكا هي العدو اللدود للعرب فإن عبد الناصر هو الذي أذلَّ كبرياءها وحطم آمالها ، وقضى على هيمنتها .

وإذا كان العرب آفتهم الكبرى الفرقة والاختلاف فإن عبد الناصر هو الذي استطاع أن يجعل العرب أمة واحدة وقومية واحدة تحت زعامته.

كل هذه الآراء التي شاعت بين الناس جعلت من جمال عبد الناصر رمزاً للمقاومة العربية ضد الهيمنة الأمريكية، وطغيان إسرائيل حليفتها الاستراتيجية، لذا نجد صورة عبد الناصر مع كل عدوان أمريكي أو إسرائيلي على البلاد العربية تُرفع، والحناجر باسمه تهتف : لو كان عبد الناصر حيّاً ما كانت أمريكا لتحتل أفغانستان أو العراق ، وما كان لإسرائيل أن تُبِيد الفلسطينيين ، وتجتاح لبنان وغزة، وتهدد إيران وسورية ، وما كان، وما كان ...

كما أن أي مُقاوِم لإسرائيل يشبه بعبد الناصر، وأي عدو للإمبريالية يقرن به وهناك حزبان ناصريان ،على الأقل ،في مصر: الحزب الناصري ، وحزب الكرامة، بالإضافة لحزب التجمع الذي يعتز بالتجربة الناصرية . كما أن بعض مرشحي الرئاسة ناصريون وبعضهم ذوو ميول ناصرية .

والحقيقة أن المفهوم الشائع عن علاقة عبد الناصر بالغرب – خاصة أمريكا وإسرائيل – ليس فقط مخالفاً للحقيقة والتاريخ وإساءة للتجربة الناصرية بإظهار

عبد الناصر في شكل الطاغية الغاشم أو هتلر النازي –كما يصفه أعداؤه من الغرب – إنما أيضاً فيه إساءة لفهم حقيقة الصراع العربيِّ / الغربيِّ مما يؤثر سلباً على حسن اختيار السياسة الرشيدة التي يجب أن يتبعها العرب ليحققوا بها أهدافهم بعد سلسلة طويلة من التخبط الفكري ، والتمزق النفسي، والتخلف الحضاري ، والهزائم العسكرية.

ولو أن التجربة الناصرية بصفة خاصة وتاريخ الصراع العربيِّ / الغربيِّ بصفة عامة قد دُرِست دراسةً سياسيةً موضوعية ما تكررت أخطاء الماضي وما ظهرت تلك الزعامات العربية التي تسببت فيما نحن فيه من ذلٍّ وهوان ، وفرقة وانقسام .

ومنهج البحث في هذه السلسة يعتمد على إيراد حقائق الأحداث كما نصت عليها الوثائق الرسمية ، والأخبار الصحيحة التي رواها شهود العيان ، والأخبار التي نُشِرت في الكتب والصحف والمجلات عملاً بقول الفيلسوف الروماني " سينيكا ": " لا تقل لي شيئاً ولكن دعني أرى ".

وبعد عرض شريط الأحداث الحقيقية التي تُمَكِّن القارئ من معرفة حقيقة ما حدث أجتهد في تطبيق مبادئ علم السياسة وأسسه ، وإدارة الأزمات وقوانينها على تلك الأحداث ، ثم أذكر أراء الساسة والمفكرين والكتَّاب التي تدعم هذه الآراء ، وأخيراً أقوم بالتعليق على الأحداث واستخلاص العبرة التي آمل أن تفيدنا في فهم الحاضر، وتعيننا على اتخاذ القرار الصحيح في المستقبل.

وأخيرا أُذَكِّر القارئ العزيز أن الأمم التي تقدمت ناقشت تاريخها مناقشة علمية، وبأكبر قدر من الحيادية ، وجنبت تأثير العواطف الهوجاء والثارات

الشخصية ، والمصالح الذاتية في الحكم على الأحداث والأشخاص ، حتى تأخذ من ماضيها لحاضرها ومستقبلها ، ومن أخطائها ما يجنبها الوقوع فيها ثانية.

كما أنهم لم ينظروا إلى زعمائهم نظرة تقديس وتأليه بل نظروا إليهم نظرة تمحيص وتقييم، فحكامهم بشر يخطئون ويصيبون عكس نظرة الشرقيين الذين يتفانون في زعمائهم أحياء ويقدسونهم أموات.

وواجب الإنسان أن يزن كل شيء بميزان الحق لا بميزان الخَلْق ، فلا يُعْرَف الحقُ بالرجال ولكن يُعْرَف الرجالُ بالحق مهما كانت أسماء الرجال وشهرتهم ، ولا جناح على المرء أن يضع فكره وعقله في ميزان النقد السليم البنَّاء فكل إنسان يؤخذ من قوله ويترك ويصحح عمله أو يخطَّأ إلا أنبياء الله ورسله .

يقول فاروق جويدة : " ينبغي أن نتعامل مع تاريخ ثورة يوليو على أساس أنه تاريخ مصر وليس تاريخ عبد الناصر أو السادات أو محمد نجيب أو سعد زغلول أو النحاس . إن تنقية الكتابة التاريخية من الأهواء والأغراض والمصالح هي نقطة البداية ؛ لأن المؤرخ راهب يجب أن يتخلص من كل غبار النزوات والشطط والرؤى الضيقة، ويهب نفسه لقيمة اسمها الحقيقة وهي أساس الكتابة التاريخية."[1]

ومقياس شخصية الوطني المخلص لا تتضح تمام الوضوح إلا إذا حدد المعيار السليم لقوة ضبط النفس في تطبيق المبادئ والأهداف والمُثل والحرص على تحقيق مصلحة الأمة ، وليس الانتصار لشخص على حساب مصلحة الوطن ، وأن

([1]) فاروق جويدة " من يكتب تاريخ ثورة يوليو " دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ٧٥ .

التقيد بالمُثُل يعني ضمان عدم تأثر المبادئ والأهداف بشخصيات الزعماء، أو بالهوى، أو بالمصلحة الشخصية.

وعبد الناصر نفسه رفض أول عهده بالحكم الهتافَ باسمه ودعا للتمسك بالمبادئ والمثل العليا.

يقول عبد الناصر في خطابه يوم حادث المنشية : " لا يريد جمال مطلقاً أن تهتفوا باسمه، إننا نريد أن نعمل لنبنى هذا الوطن بناءً حراً سليماً أبيّاً، ولم يبنَ هذا الوطن في الماضي بالهتاف، وإن الهتاف لجمال لن يبني هذا الوطن، ولكنَّا يا إخواني سنتقدم وسنعمل.. سنعمل للمبادئ.. وسنعمل للمبادئ، وسنعمل للمثل العليا؛ بهذا سنبنى هذا الوطن . فلن تكون حياة مصر معلقة بحياة جمال عبد الناصر، ولكنها معلقة بكم أنتم وبشجاعتكم وبكفاحكم، فكافحوا، وإذا مات جمال عبد الناصر فليكن كل منكم جمال عبد الناصر.. فليكن كل منكم جمال عبد الناصر متمسكاً بالمبادئ ومتمسكاً بالمثل العليا. "[1]

وفي ذكرى وفاة حسن البنا في فبراير عام ١٩٥٤ قال عبد الناصر: " نعم أذكر في هذا الوقت، وفى هذا المكان كيف كان حسن البنا يلتقي مع الجميع ليعمل الجميع في سبيل المبادئ العالية، والأهداف السامية، لا في سبيل الأشخاص ولا الأفراد ولا الدنيا.. وأشهد الله أنى أعمل – إن كنت أعمل - لتنفيذ هذه المبادئ، وأفنى فيها، وأجاهد في سبيلها ." [2]

([1]) من خطاب جمال عبد الناصر يوم حادث المنشية ١٩٥٤/١٠/٢٦ .

([2]) من كلمة جمال عبد الناصر في الاحتفال بالذكرى الخامسة لحسن البنا ١٢ / ٢ / ١٩٥٤ .

إن العقل المستنير يرفض الوصاية عليه ، ولا يسلِّم بشيء تسليماً أعمى إنما هو مستعدٌ دائماً للتأمل ، ومتحفزٌ أبداً لاتخاذ القرار الأخلاقي الحر ، وآمل في هذا السلسلة من الكتب تيسير كثير من الحقائق التاريخية التي حُجبت بسبب عمليات غسيل المخ التي مورست على الشعب المصري لسنوات طوال والتي قامت بها آلة الإعلام الجبارة فيكفي أن يتكلم الزعيم السياسي مرة واحدة وسط مظاهرة نظمت تنظيماً إيجابيّاً لكي تبدأ عملية التكرار والنشر السريع حتى تصل إلى آذان مئات الملايين من الناس عدة مرات في اليوم الواحد ، وحتى تفرض عليهم عدة مرات في وسائل الإعلام ، فلا يفلت من أثر الدعاية أي جانب يعتد به.

ولهذا السبب فإن الحُكَّام كانوا يحتكرون وسائل الإعلام احتكاراً خاصاً لهم فلا تخرج كلمة من مذياع ، ولا ترى صورة في تلفاز ، ولا تقرأ كلمة في كتاب ، أو جريدة أو مجلة ، ولا ينظم أي اجتماع دون مراقبة شديدة وتمحيص دقيق ترفع منها ما لا يتفق مع سياستها ، وتضع فيها بالإيحاء أو بالأمر ما ترى فيه مصلحة سياستها ، فيصبح عقل المواطن كالعجينة في يد الحكومة تشكله كيف شاءت. ويلاحظ أن السلبية تظهر بجلاء في الشعوب المحكومة بالإيحاء فقط.

إن الضعيف الجبان دائماً يحلم بزعيم قوي شجاع يستر وراءه ضعفه ، ويجبر به كسره ، وفي أوقات الهزائم والمحن يلتف الناس خلف كل ثائر بطلاً كان أو ناعقاً ، ويستحضرون صور زعمائهم الذين قالوا " لا " في وجه أعدائهم ، وبدلاً من أن ينتصروا للمبادئ ينتصرون للأشخاص الذين عبثوا بها !!

هذه هي عبادة الأشخاص التي تسود المجتمعات المتخلفة ، فهي تؤمن ببعض الزعماء إيماناً مطلقاً ، وتجعل من شعاراتهم قرآناً صالحاً لكل زمان ومكان !

ولا يكفي لبلوغ الأهداف مجرد طموح زعيم وإرادته بل لابد من تأييد حقيقيٍّ ومستمر تقوم به الأمة عن حب وطواعية ولهذا وجب أن يقوم تنسيق جيد وتوازن سليم بين الإرادة الشعبية وبين تطلعات الزعيم وبدون هذا التوفيق وهذا التوازن يتعذر على الزعيم أن يمضي في طريقه قُدُماً ، فواجب الزعيم أن يلتمس دائماً مواطن القوة ويتعرف بيقين ما يملكه من إمكانيات ووسائل لتحقيق الأهداف إذ لا يكفي مجرد التطلع إلى السلطة ، ولا يغني كذلك الوصول إليها بل لابد أن تتوافر الوسائل والإمكانيات التي تضمن تحقيق الأهداف.

والهدف في ذاته لا يكفي ولن يكون له الفاعلية المنشودة ما لم تتوافر له الوسائل الملائمة وإلا تعرض الزعيم إلى انحرافات ومزالق يؤدي إليها الخيال والتوقعات التي لا تستند إلى أساس سليم ، وهذا من شأنه يؤدي إلى القضاء على الزعيم وعلى أمجاده. [1]

والشعوب المتحضرة استطاعت أن تستبدل بعبادة الأشخاص تقديس المبادئ، والكفر بالزعماء الذين أهدروها.

وأيقنَتْ أن لكل زمان رجاله ، ولكل مرحلة قراراتها فما كان مطلوباً في وقت النضال من أجل الحرية – ربما – صار مرفوضاً في المراحل التالية التي تتطلب مراجعة النفس ، وإعادة تقييم الماضي بشخوصه وأحداثه.

والشعوب العربية وقد استردت حرياتها بعد الربيع العربي تستطيع أن تفرق بين الزعيم المتجرد المخلص وبين الزعيم الذي يخفي وراء المبادئ شهوة السلطان والطموح الذي لا حد له في السيطرة والتملك .

([1]) محمد على الغتيت " العبقرية والزعامة السياسية " دار الشعب الطبعة الثانية ص ٢٩٩.

إن الشعوب العربية بعد أن ثارت في وجه حكامها الطغاة تريد حكاماً تقاوم الاتجاه الغريزي للاستبداد لكي تناصر مصلحة أممها ، وتصارع الشهوات الخاصة لتخضعها لمصلحة شعوبها ، وتكافح الانحراف عن هذا النهج ، وتعمل على القضاء على محاباة الحاكم للمصالح الشخصية ، وتصارع استغلال السلطة للمصلحة الشخصية على حساب ثروة الوطن ومستقبله. [1]

ولقد حرصت في هذه السلسلة غاية الحرص على الانتصار للمبادئ لا للأشخاص ومما ساعدني على ذلك أمران:

أولهما : أمر شخصي وهو أني لم أومن بزعيم إيماناً مطلقاً فكل ابن آدم خطَّاء، ولم أقع تحت تأثير حب أو كره أحدهم فالحمد لله لم ينلني منهم – بصفة شخصية – تكريماً ولا تعذيباً مثل الكثير ممن أرخوا لهؤلاء الزعماء وقد اصطلوا بنارهم أو نعموا بقربهم.

وثانيهما : أمر منهجي فقد عملت في هذه السلسلة على فصل المعلومة عن الرأي ، أو الخبر عن التحليل ،بلغة الصحافة،حتى يتمكن كل شخص أن يفكر بنفسه لا أن يفكر له الآخرون ، ويتخلى عن حالة الجمود العقلي التي يقبل فيها آراء لمجرد أنها كانت مقبولة وشائعة ، كما يتخلى عن التسليم المطلق بكل فكرة حتى وإن كانت صادرة من شخص يثق فيه فربما أخلص في الاجتهاد وأخطأ في الرأي.

([1]) نفسه ص ١٩٣.

كما يجب أن يتحلى بفضيلة التدبر والتفكر فيما يقرأ ، يقول عليّ رضي الله عنه: " إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها " [1]

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

صدق الله العظيم

***

(1) ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى { إنما يخشى الله من عباده العلماء }.

مقدمة الكتاب

إن انتشار الفساد ، والتوزيع الجائر لثروات البلاد ، ووقوع البلاد تحت الاحتلال الأجنبي ، واستبداد الحاكم وفساده ، وحرمان الشعب من اختيار من يمثله ويقوم على مصالحه يؤدي ذلك حتماً إلى ظهور تنظيمات سرية وانقلابات مسلحة ، وانتشار الفوضى.

ونظام الأحزاب المصرية منذ نشأته سعى إلى استغلال الشعب في الصراع من أجل الحكم ، في الوقت الذي كان ينبغي على كافة الأحزاب نشر الوعي السياسي بين الناس لا الدعوة لتأييد حزب ما بالحق وبالباطل ومعاداة الأحزاب الأخرى بالحق وبالباطل دون مراعاة مصلحة البلاد وأمنها ، مما نتج عنه بلبلة في الأفكار وأدى إلى ظهور جماعات لا تؤمن بالحياة البرلمانية ولا بالأحزاب الدستورية، إنما تتبنى أفكاراً أيديولوجية تؤمن بها وترى أنها هي السبيل الوحيد الصالح للبلاد والعباد من هذه الجماعات : جماعة الإخوان المسلمين ، وجماعة مصر الفتاة ، وجماعة " حدتو " الشيوعية.

ولم يكن ضباط الجيش بعيدين عما يجري في مصر بل كانوا ،كغيرهم من المواطنين المخلصين ، مشغولون بالحالة التي وصلت إليها البلاد ، وطريق الخلاص من تردي الأوضاع.

وبدأ طوفان من الأسئلة يغزو رءوس هؤلاء الضباط الوطنيين صغار السن ، كيف أساعد في إصلاح هذا الفساد ؟ وأي طريق أسلك لأصل لتحقيق أهدافي ؟ هل أنضم لحزب من الأحزاب ؟ أم ألجأ إلى تنظم من التنظيمات السرية ؟

لقد استنفدت الأحزاب الموجودة كل مقوماتها ، ولم يعد يرجى منها إصلاح لذا بدأ هؤلاء الضباط في الانضمام إلى هذه التنظيمات السرية لعلهم يجدون عندها الإجابة عن تلك الأسئلة.

وفي حين وجد الضباط في تلك الجماعات التنظيم الذي تفتقر إليه قوتهم وجدت هذه الجماعات في هؤلاء الضباط القوة التي تعوز تنظيمهم ، ومن هنا جاء انضمام الضباط إلى هذه التنظيمات سرية التي زاد نشاطها مع تردي أحوال البلاد.

كانت جماعة الإخوان المسلمين أكبر التنظيمات التي جذبت الضباط الثائرين على فساد الأحوال أو انجذب إليها هؤلاء الضباط لما للدين ورجاله من مكانة في قلوب المصريين يفزعون إليه في وقت الشدائد ولما كانت تتمتع به الجماعة من قوة تنظيمها وقوة تأثير مرشدها ، وهذا لا يمنع من انضمام بعض الضباط إلى تنظيمات شيوعية مثل يوسف صديق ، وأحمد حمروش ، وفي بعض الأحيان كان الضابط يجمع بين انضمامه للتنظيم السري لجماعة الإخوان المسلمين وعضويته في تنظيم شيوعي كما هو الحال مع خالد محيي الدين.

ومرت بجماعة الإخوان المسلمين والتنظيم محنة الحلّ والاعتقالات التي طالت أغلب رجالها وقادتها وأوقفت حركة أقسامها المختلفة، ومنها بالطبع الحركة داخل الجيش.

وبعد عودة الضباط من ميدان الجهاد في فلسطين حرص عبد الناصر على أن يقطع صلته بالتنظيم السري القديم ويبدأ تنظيماً جديداً من عناصر التنظيم السري للإخوان المسلمين في القوات المسلحة ومن عناصر أخرى من الضباط الذين قاسموه محنة الفالوجا.

وهذا التنظيم هو الذي تمكن من القيام بثورة ٢٣ يوليو والإطاحة بالملك فاروق ونظامه الفاسد .

كيف تم ذلك ؟

هذا هو موضع الكتاب الأول من سلسلة كتب "دروس سياسية من التجربة الناصرية " الذي يتناول قصة الضباط الأحرار من النشأة الأولى حتى نجاح الثورة وإن شاء الله تعالى سيصدر تباعاً فصولاً أخرى من قصة ثورة ٢٣ يوليو .

محمد يونس هاشم

٢٠١٢/١/٦

***